الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب : ٤١٢٣ بيروت ـ تلفون : ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B.P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ـ بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان : ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا : ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

ـ ١ ـ

الصلات الثقافية بين مصر ولبنان في النهضة الحديثة

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

في تاريخ الامة العربية ظاهرة كبيرة شديدة الوضوح. تلك هي ارتباطها برباط ثقافي وثيق منذ اقدم العصور المؤرخة لهذه الثقافة . لقد كان فكر هذه الامة كما تصوره لغتها يمتد امتدادا حرا طليقا الى كل البلدان التي تتكلم بهذه اللغة ، على اختلاف مراكز المد والاشعاع تبعا لاختلاف مراكز السيادة السياسية .

فلو نظرنا في تاريخ الجزيرة الفكري قبل الاسلام ـ وهي اقدم بيئة من بيئات الثقافة العربية ـ لالفينا الشعراء يتنقلون بين مختلف مناطق الجزيرة حاملين شعرهم ليعرضوه على القبائل ، ولرأينا تفاعلا فكريا ولغويا قويا يحدث في خفية وبطء ، حتى تخلص للشعر لغته الخاصة التي صفيت من لهجات القبائل واصبحت وسيلة التعبير المقبولة المفهومة في دوائر الجزيرة الادبية . ونرى من ناحية اخرى ان الشعراء يفدون من الجزيرة على بلاطات الملوك من المناذرة والغساسنة ليلقوا شعرهم بين ايدي هؤلاء الملوك العرب الذين كانوا يطربون للشعر الجيد ويقربون اصحابه ويجيزونهم . وكل من يقرأ شعر النابغة والاعشى وطرفة والمتلمس وحسان ولبيد ، تقع عينه على صورة واضحة لهذه الصلات التي كانت تجعل من الجزيرة العربية وحدة ثقافية ولغوية وحضارية .

وبعد ظهور الاسلام اتسع نطاق تلك الصلات ، واستمر في الاتساع على الزمن ولم يعد المظهر قاصرا على رحلة الشعر بل شمل ايضا الصلات السياسيه والتجارية والعلمية. فقد اصبحت البلاد التي تتكلم لغة الضاد تمثل منطقة سيادة مشتركة في كثير من الحقب ، وكان الفرد يتنقل من اقصى الغرب الى اقصى الشرق دون ان تعترض سبيله حواجز او عوائق . واصبحت « الرحلة » في طلب العلم ولقاء العلماء قاعدة علمية اساسية ، اي ان المسجد او المدرسة كانا البداية المحلية لحياة المثقف ، ثم كانت منزلته العلمية تتوقف على لقاء مشاهير الشيوخ في كل قطر ، على تنوع اختصاصهم وقل ان نعثر في كتب الطبقات والمذاهب على عالم قر في بلده واكتفى بمساجدها وعلمائها ، ولم يجد في اثر علماء التفسير والحديث والمذاهب ، مهما تناءت الاقطار وشطت الديار . وهذه ظاهرة مألوفة اوضح من ان تضرب لها الامثلة ويؤتى لها بالشواهد .

وكان الازهر والكليات النظامية ببغداد ونيسابور والمدرسة المستنصرية وجامع قرطبة وغيرها تمثل المراكز الجامعية في تلك العصور ابتداء من القرن الرابع . واذا

اتخذنا الازهر مثلا على هذه المدارس ، وجدناه قد افتتح صفحه جديده من تاريخ العلوم العربية ، مضى عليها اكثر من الف عام وما تزال ناصعه مشرقه . ومنذ ذلك الحين احدث كتب الرجال تتلون بلون جديد، فكان يضاف الى نقايات العالم كفايه جديده هي طلبه العلم في هذه الجامعه التي كانت تتطور متاثرة بما يحيط بها من احداث السياسة وتقلب المذاهب . وتظل بعد هذا لله حمى وملاذا للغه العرب وتراثهم تصد عنهما غارات الدخلاء الواغلين الذين كانوا يحاولون القضاء على الثقافة العربية ، باعتباره اقوى وسيله للقضاء على كيان العرب السياسي .

وظل هذا الخط المشرق واضحا متصلا حتى يومنا هذا . وبحسبنا ان نذكر عالمين فقط من العلماء الذين ظهروا فيه قبيل يقظة القرن التاسع عشر لندرك خطر الدور العلمي الذي كان ينهض به خلال هذه الاعوام الالف ، هذان العالمان هما الشيخ عبد الرحمن الجبرتي مؤلف « عجائب الاثار » والشيخ حسن العطار مثال العالم المحافظ المجدد في اواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر .

- ٢ -

وفي بداية القرن الماضي اخذت الحياة العربيه تتجدد لاعادة هذه الصلات التي وهنت في الحقب التي تمكن فيها الاجنبي من رقاب العرب . يجددها في مصر محمد علي ، فينشيء المدارس الحديثة ، على مختلف مستوياتها . كالمدرسة التجهيزية الحربية ومدرسة اركان الحرب والمدارس الطبيه والمدارس الزراعه والهندسه ، وما يتبع هذه المدارس العالية من المكاتب الابتدائية والاعداديه . ويشكل ديوانا للمدارس يراقبها ويخطط لها ويرعى شؤونها ثم يرسل البعثات العلميه والعمليه الى اروبة لتنهض بامر المدارس والمصانع ، ويأتي بالعلماء والمترجمين من كل مكان وينشيء مطبعه تزود التلاميذ والاساتذة بالكتب التي يحتاجونها ، كل هذا حدث في مصر في ثلث قرن ، فكانت بذلك اول بلد عربي ، زود بوسائل النهضة الحقيقية ، واصبحت منذ ذلك الحين اقوى مركز من مراكز الحضارة الحديثة في العالم العربي .

وحين كانت الحياه العربية في مصر آخذة في التطور السريع ، بفضل هذه المعاهد العاليه ، كانت عيون اللبنانيين ايضا تتفتح على آفاق جديدة من المعرفة ، اتتهم من الخارج تحملها البعثات الدينية التي اخذت تؤم لبنان في القرن السابع عشر ، ولكن اثرها الحقيقي اخذ يتضح ويأخذ طابعا جديدا من القرن الماضي .

كانت اولى هذه البعثات ، البعثة الانجيلية المشيخية « البريسبتيرية » التي اتخذت لها مركزا في بيروت سنة ١٨٢٠ . وقد ابدى افراد هذه البعثة نشاطا ملحوظا في التعليم ، فانشاوا عددا من المدارس بلغ عددها حوالي ١٨٦٠ نحوا من ثلاث وثلاثين مدرسة . واعدوا لها المعلمين الاكفاء ، وزودوها بالكتب النافعة التي وكلوا امر تاليفها الى مشاهير ادباء العصر كالشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني . ثم توجوا نشاطهم بتأسيس الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٦٦ التي اصبحت تدعى فيما بعد الجامعة الاميركية . وقد قامت هذه الجامعة بدور خطير في نهضتنا الحديثة .

وكان الانجيليون واليسوعيون فرسي رهان في حلبة السباق التعليمي . اذ ماكاد اليسوعيون يشعرون بوفود الانجيليين على لبنان ، حتى عادوا اليه سنه ١٨٣١ ، بعد ان كانوا قد غادروه سنة ١٧٧٣ حين حل البابا جمعيتهم . ولم يكن اليسوعيون اقل نشاطا من الانجيليين في تأسيس المدارس ، بل انهم فاقوهم في تأسيس مدارس الذكور . وبذلك عني اليسوعيون بنشر كتب التراث العربي وتوافروا على دراستها . كما اسسوا جامعة القديس يوسف سنة ١٨٧٥ .

هذه المدارس التي انشأتها البعثات الدينية ، الى جانب المدارس الوطنيه الابتدائية والعاليه التي انشئت قبل ذلك وبعده ، هي التي حملت مشعل اليقظه في لبنان ، ونشر تعليم اللغات الاجنبيه ، وجعلت للبنان مكانه حضارية مرموقه في المنطقة العربيه منذ النصف الثاني من القرن الماضي .

وهكذا رفع للفكر في العالم العربي منارتان عاليتان . احداهما على ضفاف النيل والثانية على شواطىء المتوسط . ومنذ ذلك الحين غدت هاتان البيئتان المجرى العام او النهر العظيم الذي تفرعت منه الجداول وانحدرت الاوشال لتصب في البيئات الفكرية الاخرى في العالم العربي ، كل بحسب حظها من الثقافه ونصيبها من التطور . وقد التقت هاتان البيئتان العظيمتان منذ اوائل القرن الماضي في تعاون ثقافي وثيق العرى ، تعمقت جذوره وتنوعت مظاهره فيما بعد ، فمنح فكرنا العربي الحديث صورته التي تمثل امامنا اليوم . وكانت البيئات الاخرى دوما تعشو ببصرها الى هاتين المنارتين اللتين غمر نورهما العالم العربي بمختلف اقطاره . فلا عجب اذن حين نرى الاقلام العربيه تهاجر الى مصر او الى لبنان ، وقد تذهب مشرعه في ايدي حملتها فنراهم يرتادون ارض الكنانة وينهلون من ماء النيل هنيئا مريئا ، او يشوقهم شموخ لبنان ، فيتفيئون ظل ارزه الوارف الظليل . ولذا فان كل تاريخ لنهضتنا الفكرية الحديثة لابد من ان يبدا بهذين القطرين العظيمين ، وينتهي اليهما ، فقد جمعا في نهضتهما المتعاونة خلال قرن ونصف من الزمن ، جميع مظاهر اسهامنا الجدي في الفكر والحياة .

وهذا ما اغراني بدراسة تاريخ هذا التعاون الفكري بين البلدين ، وهو تاريخ زاهر مجيد ، تنطق كل صفحة من صفحاته باجمل معاني الود والسمو والاخاء .

- ٣ -

بدات هجرة اللبنانيين الى مصر قبل يقظة القرن التاسع عشر بقرنين على الاقل . فنرى علي بك الكبير حين تولى الحكم سنه ١٧٧٣ يشجعهم على القدوم الى مصر ويهيىء لهم فيها مكانا وطيئا وعيشا رغيدا فيبلغ عددهم في القاهرة وحدها في اواخر عهده زهاء ثلاثة الاف . الا ان نشاطهم آنذاك اقتصر على الوظائف الحكومية والاعمال التجارية . ولعل اول دور ثقافي برزوا فيه ، كان ابان الحملة الفرنسية على مصر . اذ اصطنع الفرنسيون عددا منهم ليساعدوهم في الترجمة والطباعة وتنظيم الديوان . وحين رحل الفرنسيون عن مصر اخذوا معهم عددا منهم ، وبقيت كثرتهم في مصر . لتسهم في الطور الثقافي الثاني من حياتها الحديثة ، وهو عهد محمد علي .

غلب محمد علي الاعتبارات الثقافية والحضارية على كل ما سواها ، ولذا استعان في نهضته بعدد من الاجانب ، من فرنسيين وايطاليين ، وكان من الطبيعي ، ان يفيد اعظم افادة من جهود اللبنانيين الذين يتقنون لغة البلاد ، فهي لغتهم ، والذين لا تفصل بينهم وبين ابناء الشعب تلك الحواجز التي كانت تقف حائلا بين الاجانب وبين ما اصطنعوا له من خدمة البلاد . فاللبناني العربي ، بحكم تاريخه وتراثه

ولغته وعاداته ، لن يثير في نفوس ابناء الشعب الريب والظنون كما ينتظر من الاجنبي ، واذا انتدب الى الخدمه العامه فلا بد من ان يخلص في العمل ، لانه انما يخدم اهله وبلاده . وكان للبنانيين في عهد محمد علي دور واضح في الطباعه والترجمه والصحافه .

اما في الطباعة فاننا نخص بالذكر نقولا مسابكي الذي بعث به محمد علي الى ميلانو سنه ١٨١٥ ليتعلم فنون الطباعه . وقد مكث فيها اربع سنوات عاد بعدها الى مصر ومعه الالات اللازمة ، وانشا مطبعه بولاق التي كان لها اعظم الاثر في نشر الثقافه العلميه وفي بعث التراث العربي، وظل مديرا لها حتى توفي شابا سنه ١٨٣٠ .

اما اسهام اللبنانيين في الترجمه فانه يعتبر أعظم اسهام لهم في هذا العصر . اذ كانت الكتب المترجمه هي عده محمد علي في نهضته العمليه والعلميه . ففنون الحرب والصناعة والضباغة والزراعة والتعدين تدرس في هذه الكتب اولا ثم تخرج الى الحياه العمليه لتطبق على ارض الكنانه . وتلاميذ المدارس العالية ، لا بد لهم من الاعتماد على العلوم المترجمة اذ كانت معرفتهم باللغات الاجنبية آنذاك ضئيلة بل اكاد اقول معدومة . وقد تنوعت موضوعات الترجمه بتنوع الخطوط التي كانت تسير عليها عجله اليقظة ، وباختلاف الدروس التي كانت تعطى في المدارس العاليه . على انها كانت جميعا تدور في فلك العلم، نظرا وتطبيقا فتشمل الطب بفروعه والهندسة بانواعها والصناعه بمختلف فنونها . ندكر من بين هؤلاء المترجمين الاب انطون روفائيل ويوسف فرعون ، وقد فصلت المراجع المصرية الحديثة ، ككتب الدكتور الشيال والدكتور ابو الفتوح رضوان والدكتور احمد عزت عبد الكريم الحديث عنهم ، ولا داعي هنا لتكرار ما قالوا . والظاهره التي تلفت نظر الباحث هنا ان المترجم اللبناني كان يجلس جنبا الى جنب مع العالم المصري ، الاول يترجم والثاني يصحح اللغه ويضعها في بيان عربي مفهوم مقبول ، لكي تصل الكتب الى ايدي المنتفعين بها خالصة من شوائب العجمة والغموض .

اما في الصحافة ، فان دور اللبناني في هذه الفترة لم يكن قويا بارزا ، كما كان في النصف الثاني من ذاك القرن ، ولكنني اود ان أشير الى جهود الكاتب اللبناني الكبير فارس الشدياق في تحرير الوقائع المصرية ١٨٢٨ – ١٨٣٤ وتتلمذه على رفاعه الطهطاوي والشيخ محمد شهاب الدين وهي الفترة التي كان لها أعظم الاثر في حياته ، اذ أتيح له ان يدرس اللغة العربية دراسة تعمق وشمول ، ليقوم في النصف الثاني من القرن الماضي بدوره الخطير في نهضتنا ، دور الكاتب المجدد والعالم اللغوي المدقق الذي استطالت قامته حتى بلغت قاموس الفيروزابادي فكشفت عما فيه من عيوب ومآخذ .

— ٤ —

واذا التفتنا الى لبنان في هذه الفترة وجدنا ان البعثات الدينيه سائرة في سبيلها . وقد هيأ لها حكم ابراهيم باشا للبلاد (١٨٣٢ – ١٨٤٠) بما اتسم به من تسامح ، ان تمضي في اداء مهمتها على اكمل وجه . وقد اشرنا سابقا الى انه كان لهذه البعثات الدور الاول في يقظة لبنان في القرن الماضي . وبذا يكون ابراهيم ، عاملا من العوامل التي شجعت على مضي اليقظة اللبنانية في سبيلها ، دون تلكؤ .

— التتمة على الصفحة ٦٦ —

صدر حديثا عن :

دار الطليعة للطباعة والنشر

*

روابي افريقيا الخضراء

رائعة همنغواي الوصفية — ترجمة يوسف الخطيب

القصة التي تجعلك تعيش أروع الحوادث مع همنغواي في اطار طبيعي كله سحر وروعه ومفاجآت .

ثورة افريقيا

تأليف مادهو بانيكار الاخصائي العالمي الهندي في الشؤون الافريقية — ترجمة خيري حماد

دراسة شاملة للدول الافريقية الناهضة تحوي ادق التفاصيل عن الاحزاب والزعماء الافريقية .

السلطان

تأليف برتراند راسل — ترجمة خيري حماد

اعمق دراسة عن فلسفة الحكم والسيطرة والنفوذ

الجذور التاريخية للشعوبية

تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري

تحليل واقعي لعناصر الشعوبية السياسية والاثنية والدينيه والادبية .

الخبز مع الكرامة

تأليف الدكتور يوسف عبدالله صائغ

تحليل علمي للمضمون الاقتصادي الاجتماعي للمفهوم القومي العربي

الشيوعية

تأليف هارولد لاسكي — ترجمة خيري حماد

الكتاب الوحيد المحلل للشيوعية من وجهة نظر الاشتراكيين الديمقراطيين

الصلات الثقافية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣ ـ

ونرى من ناحية أخرى ان هذه الحملة العسكرية ، قد فتحت نافذة جديدة من نوافذ التعاون الثقافي . فابراهيم يخصص عشرة مقاعد في كلية الطب المصرية للسوريين ، فيأخذ هؤلاء الطلاب في التقاطر على مصر منذ وقت مبكر في القرن الماضي . فالدكتور ميخائيل مشاقة اشهر اطباء لبنان في القرن الماضي ، كان احد تلاميذ هذه المدرسه . وكذلك غالب البعقليني وابراهيم النجار ويوسف الجلخ ويوسف مرهج . وقد ظل هذا التقليد متبعا حتى وقت متأخر من القرن الماضي، ثم يستمر التحاق اللبنانيين، بكلية الطب المصرية ، وبكليات الجامعات المصرية الاخرى حتى يومنا هذا . وعندما أسست جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية سنة ١٨٨٠ رأت من أول واجباتها ان ترسل بعثات للدراسة في مصر . فاختارت خمسة من شبان بيروت هم : كامل قريطم ، وعبد الرحمن الانسي وسليم سعد الدين سلام وحسن الاسير ومحمد سلطاني ، وهيأت لهم بالاتفاق مع الحكومة المصرية ، سبيل الالتحاق بكلية الطب المصرية ، بعد ان بعثها اسماعيل من جديد وادخل عليها التحسينات التي تجعلها اداة نافعه في النهضة التي كان يسوق البلاد اليها . ونجد اخبار هؤلاء الطلاب مفصلة في سجلات ديوان المدارس في مصر ، وفي بعض الصحف اللبنانية ومن أهمها مجلة « الجنان » لسليم البستاني التي عنيت باخبارهم وبنشر الشهادات التي حصلوا عليها . على ان اثنين من هؤلاء الاطباء ، قد سجلا تجربتهما في دراسة الطب بمصر، احدهما الدكتور ابراهيم الديراني، او ابراهيم الطبيب ، وقد تحدث عن دراسته واعماله في كتابه « مصباح الساري ونزهة القاري » ، والثاني هو الدكتور شاكر الخوري وقد اورد تفاصيل حياته الدراسية ، وعمله في المهنة في كتابه الطريف « مجموع المسرات » .

ـ ٥ ـ

هذا وجه من الصفحة او صفحه من الكتاب . وفي النصف الثاني من القرن الماضي كانت يقظة مصر ، التي تمت في عصر محمد علي ، تتحول الى نهضة . اذ عاد طلاب البعثات واخذوا يقومون بدورهم الثقافي المرتقب من تدريس وترجمة وتأليف ، كما كان خريجو المدارس العالية قد أخذوا يملأون الفراغ الذي كان ينتظرهم في الحياة المصرية ، وكانت الانظار آنذاك تتجه الى مصر ، مركز الثقل في المنطقة ، والاحاديث عن شق الترعة التي ستؤكد مكانة مصر في العالم ، تتناقلها الالسن وتنشرها الصحف . واسماعيل ، ومن حوله مستشاروه من رجال البعثات وخريجي الكليات ، يرقبون هذه العقول النيرة الشابة التي ارتوت من الثقافة الحديثة بمستوياتها العالية ، وتدفعه عجلة التطور وما كان يراه من تطلع هؤلاء الشبان وقلقهم وحرصهم على النهوض بمصر ، الى احياء مدارس محمد علي ، بعد ان توقفت او كادت في عهدي عباس وسعيد (١٨٤٩ ـ ١٨٦٣) وانشاء مدارس جديدة لم تكن غايتها عملية في المقام الاول كما كانت في عهد محمد علي ، واتجه، بنصح من مستشاريه ، الى تنظيم المعارف فانشأ لها « نظارة » عهد اليها تنظيم المدارس على نمط جديد . فانشأت المدارس الابتدائية والثانوية والعليا ، وكذلك اقامت الكليات الحديثة مما لم يكن لمصر به سابق عهد كمدرسة الادارة التي تحولت فيما بعد الى كلية حقوق ، ومدرسة دار العلوم ، ومدرسة الصنائع والفنون ببولاق ومدرسة المعلمين . وكان الفضل الاكبر في ذلك يعود الى علي مبارك الذي نفخ في النهضة التعليميه من روحه وأقام في مصر مؤسستين من أعظم المؤسسات الباقية حتى اليوم تشهد بفضله وجهوده ، وهما كلية دار العلوم ودار الكتب المصريه ، ولا يسعنا هنا ان نغفل الدور الخطير الذي قام به رفاعة الطهطاوي ، حادي قافلة الثقافة في مصر منذ عاد من بعثته الى باريس سنة ١٨٣١ حتى توفي سنة ١٨٧٣ . فاليه يعزى الفضل كل الفضل في تنظيم حركة الترجمة والاشراف على تخريج المترجمين وترجمة الكتب، والمدرسة الاولى من المترجمين ، وعلى رأسها محمد عثمان جلال ، هي غرس يديه وثمرة جهوده . هذا الى ان كتبه الكثيرة التي ترجمها او الفها تشهد له بطول الباع وتنوع الثقافة والرؤيا الصافية والجهد المخلص في وضع الاسس المتينة للنهضة الفكرية في البلاد .

يتأثر اسماعيل بكل هذا وينساق به ، بل تدفعه آلة التطور دفعا فيرعى هذه النهضة بما هيأ له رخاء البلاد من مال ، وينفق على مصر بسخاء لكي يجعلها قطعة من أوروبا ، كما قال ، واول بلد ناهض في الشرق ، ويشجع الاجانب والجيران ، فتندفع قوافل المهاجرين من كل حدب وصوب .

اما في لبنان ، فقد كانت اليقظة تسير سيرها البطيء الواثق ، فالمدارس تخرج المتعلمين ، واللغات الاجنبية تغدو شائعه متداوله ، على ان البلاد ، بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تجتازها عقب فتنة الستين ، لم تعد قادرة على استيعاب هذا العدد العديد من المتعلمين ، كما ان الاحوال السياسيه كانت تحول دون انطلاق هذه الاقلام الحرة الفتية الى شأوها اذن فلا بد من الهجرة . ومصر على مرمى البصر . ومصر تنهض بعد أن مضى زمن طويل على استيقاظها . فهي اذن المكان الاول الذي يمكن ان يجتذب هؤلاء الشبان الذين يثقل العلم رؤوسهم ويملأ الطموح جوانحهم وتتطلع انظارهم قلقة متحفزة الى وضع علمها موضع التداول والاستعمال . ولم لا تتفتح هذه البراعم الفكرية الشابة في بلد عربي ، تهيأت له كل اسباب النهوض . وهل أسخى من وادي النيل ؟

هنا تبدأ الصلات الخيرة الايجابية تأخذ طريقها الى التشكل والتوثق : ولذا فان النصف الثاني من القرن الماضي يسجل حدثا ثقافيا وحضاريا خطيرا في حياتنا الحديثة . وذلك حين غرس المصري الذي علمته يقظة عصر محمد علي ونهضة عصر اسماعيل ، معنى الاكتفاء واللبناني الذي ورث في دمه الطموح وحب المغامرة ، وفتح عينه على العلم الغربي في مدارس البعثات الدينية ، حين غرس هذان الاخوان شجرة مباركة ترعرعت في السماء ومدت اغصانها فاظلت الشرق كله ، وطرحت ثمارها الناضجة التي دفعت في شرايين العرب ، حملة التراث العريق ، دما نقيا جديدا.

ـ ٦ ـ

تتضح ملامح هذا التعاون الوثيق في اتجاهات عدة ، ولكن أخطرها اثرا في حياتنا الحديثة ما يلي :

١ ـ الصحافة

٢ ـ المسرح ـ الهجرة الاولى للمواهب الفنية
٣ ـ القصة
٤ ـ الشعر
٥ ـ التأليف والترجمة
٦ ـ الفكر السياسي

هذه المجالات من نشاط اللبنانيين ، او المدرسة السورية المتمصرة ـ كما اعتدنا ان ندعوها في كتب الادب ـ هي التي تعنينا في هذه المحاضرة ، حارفين النظر عن النشاط الاقتصادي للمهاجرين اللبنانيين ، والدور الاجتماعي والسياسي الذي نهضوا به في حياة وطنهم الثاني .

ـ ٧ ـ

ظهر نشاط اللبنانيين الصحفي في مصر ، في العقد الثامن من القرن الماضي بصحيفة كانت وما تزال من كبريات الصحف العربية ، ان لم نقل اكبرها . في سنة ١٨٧٦ اصدر سليم تقلا المعلم الاول للغة العربية في المدرسة البطريركية في بيروت وشقيقه بشارة المعلم في مدرسة عينطورا ، في الاسكندرية جريدة « الاهرام » . واتبعاها بصدى الاهرام (١٨٧٧) ، ثم اصدر سليم النقاش وزميله اديب اسحق ـ اللذان ذهبا الى مصر على راس فرقة تمثيلية ـ جريدة التجارة . وبعد ذلك توالت الجرائد اللبنانية المصرية فكان منها « الاتحاد المصري » و « مصر » و « الاحوال » و « لسان العرب » و « المشير » و « المقطم » وسواها . وقد بلغ عدد هذه الجرائد المئات ، وكان لها دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية وقد استحصدت على صفحاتها مواهب عدد كبير من الكتاب الصحفيين في مصر والشرق العربي .

الى جانب هذه الجرائد ظهرت المجلات ، وكانت بطبيعتها اكثر تنوعا واعظم اثرا . فكان منها الدينية والتجارية والطبية والزراعية والعلمية والادبية والفكاهية المصورة . ولنذكر فقط اسماء بعض هذه المجلات ، التي نعرفها او نعرف اكثرها ، نذكر المقتطف والهلال والضياء والجامعة وفتاة الشرق فتعيد الى اذهاننا المنابع الثقافية الاولى التي استقينا منها . وكانت هذه الصحف والمجلات تعتمد على اقلام لبنانية ومصرية ، ويقرأها المصري واللبناني بوجه خاص ، وتفيد منها الثقافة العربية الحديثة في كل قطر من اقطارها بوجه عام .

ـ ٨ ـ

وقد كانت الهجرة الاولى للمواهب الفنية اللبنانية في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الماضي . ففي سنة ١٨٧٥ ، وبعد ان عرفت مصر مسرح الاوبرا ومسرح الكوميدي والفرق الاجنبية وفرقة يعقوب صنوع ، نجد سليم النقاش ابن اخي مارون النقاش رائد المسرح العربي يداخله اليأس من امكان استمراره في عمله التمثيلي في بيروت فيمم شطر مصر ويقول :

« ولما كانت وسائط بلادنا المادية قاصرة عن انجاح مطلبي ، طمحت افكاري الى معالجة مقصدي في غيرها . واذ كنت اسمع بما نال مصر من رفعة الشأن بين الامصار ، اذ فاقت ما سواها من الاقطار الشرقية في التهذيب والتمدن ، ونجحت نجاحا عظيما في المعارف والعلوم ، قصدتها » .

ثم يمدح مصر واهلها وينوه بالمشروعات الثقافية والعمرانية التي تحققت فيها ثم يقص علينا خبر مفاوضته لدرانيت بك مدير الاوبرا بشأن سفر فرقته العربية من لبنان الى مصر ، واقتناع هذا بما عرضه عليه سليم ، بعد ان قدم له من البراهين ما اقنعته . وقد هبطت هذه الفرقة مصر سنة ١٨٧٦ ، تضم بين اعضائها عددا من المواهب الفنية وتحمل في جعبتها مسرحيات مارون النقاش الثلاث ومسرحيات اخرى اعدها سليم لتمثل في مصر ، منها اوبرا « عايدة » التي كان فردي قد لحنها لتمثل على مسرح الاوبرا قبل سنوات . ويستدعي سليم صديقه اديب اسحق ، الاديب المعروف ، ليعينه في ترجمة المسرحيات وتاليفها . ولكن سرعان ما يجتذب الصديقين النشاط الفكري الذي كان جمال الدين قطب دائرته ، فيتركان الفرقة ليوسف خياط ، احد افرادها ، ويلتحقان بحركة البعث وينضويان تحت لواء الشيخ ، ويصدران صحيفة « مصر » ، ثم « التجارة » بمساعدة جمال الدين الادبية والمادية .

ويستمر يوسف خياط في العمل التمثيلي حتى سنة ١٨٩٥ . وينشق عنه سنه ١٨٨٢ احد افراد الفرقة الممثل الكبير سليمان القرداحي الذي اشتهر بتمثيل ادوار شكسبير فينشىء فرقة خاصة تقطع الطريق على عدد من الفرق ويظل في هذه المهنة حتى وفاته في سنة ١٩٠٩ .

وفي فرقة الخياط تلك ، ظهر الشيخ سلامة حجازي اول ما ظهر . وعلي القرداحي تتلمذ جورج أبيض ، وعدد من الممثلين الذين كنا نسمع عنهم ونشهد تمثيلهم حتى وقت قريب .

والى جانب هذه الفرق ظهر عدد من المترجمين والمؤلفين كانوا يمدونها بنتاج اقلامهم ، ومنهم من تخصص او كاد بالمسرح ، كنجيب الحداد ومحمد عثمان جلال وابراهيم رمزي ، ومنهم من عالج المسرح الى جانب اعماله الادبية الاخرى كالياس فياض الشاعر وفرح انطون الاديب المفكر .

ـ ٩ ـ

وفي حقل القصة كان للبنانيين من اعضاء المدرسة السورية المتمصرة نشاط واضح أصيل . فقصص زيدان كانت مدرسة تتلمذ عليها كتاب القصة التاريخية في العالم العربي ، واحدثت ضجة نقدية كبيرة ، وكذلك قصص فرح انطون الاجتماعية الفكرية ، وقصص سعيد البستاني ولبيبة هاشم ويعقوب صروف . وقد اصدر اللبنانيون المتمصرون عددا من المجلات خصصت للقصة ، كما كانوا ينشرون في صحفهم القصص المترجمة والمؤلفة ، وقد بدا هذا التقليد في وقت مبكر عقب ظهور تلك الصحف في مصر .

ـ ١٠ ـ

ونذكر من الشعراء اللبنانيين الذين مهدوا لحركة التجديد في مصر ، نجيب الحداد ، واديب اسحق ونقولا رزق الله وطانيوس عبده والياس فياض وأمين تقي الدين ثم شاعر القطرين خليل مطران . وقد تميز هؤلاء الشعراء ، منذ القرن الماضي برغبتهم الشديدة في التجديد وباطلاعهم على الاداب الغربية وبعنايتهم بنقد الشعر . ولا ننسى ان

الشاعر المهجري الكبير ، أيليا أبو ماضي ، تتلمذ على شعراء مصر في مطلع حياته الادبية وكان للسنوات التي قضاها على أرض النيل أعظم الاثر في تهذيب شعره واستحصاد ملكتـــه .

— ١١ —

ويتألق في حقل التاليف جرجي زيدان ، وكتبـــه النفيسة التي ما تزال مرجعا للعلماء والباحثين كتاريخ آداب اللغة العربية ،وتاريخ التمدن الاسلامي ، ونذكر يعقـــوب صروف بمقالاته وكتبه العلمية وشبلي الشميل اول مدافع عن نظريه النشوء والارتقاء وفرح انطون وكتبه الفلسفيـــة والاجتماعية ، ونقولا حداد وكتبه العلمية وابحاثه المبـــكرة عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية وسليمان البستانـــي مترجم الالياذة . هذا غيض من فيض ، لا بد حين ذكره من ان ننوه بفضل البيئة التي احتضنته وشجعت اصحابـــه واستقبلت آثارهم بالاعجاب والتقدير .

— ١٢ —

وهل هناك دليل اعظم من ان عددا من هؤلاء الكتـــاب انغمسوا في السياسة الوطنية المحلية ، فكان منهم من شرع قلمه لنشر مبادىء جمال الدين الاصلاحية ومحاربة النفوذ التركي والاحتلال الانجليزي . وما تزال كتابات اديـــب اسحق الثوريه مرجعا لكل من يدرس الفكر السيـــاسي المهد للثورة العرابية ، وكذلك يعتبر كتاب سليم النقاش ، الذي عنونه بشعار العرابين « مصر للمصريين » باجزائـــه الستة المتبقية ، بعد ان حرقت الحكومة المصرية آنـــذاك اجزاءه الاولى ، من احسن المراجع لدراسة الحركةالعرابية ومحاكمات العرابيين .

— ١٣ —

واذا التفتنا الى لبنان في ذلك الحين ، نجد ان الحياة الفكرية فيه ، لا تخلو من مشاركة الادباء المصريين ، ففـي الجمعية العلمية السوريه التي اعيد انشاؤها سنة ١٩٦٨ نرى عضوين من اعضائها ينتميان الى اسرة من اكبر الاسر المصرية ، وهما سليمان اباظه واحمد اباظه .

وعندما كانت تحتدم المناظرات الادبية واللغوية في لبنان، كنا نرى ادباء مصر وعلماءها يشاركون فيها مؤيدين هـذا او ذاك من المتناظرين ، وقد حدث هذا مرات كثيرة ، في مناظرة « الجوائب » و« برجيس باريس » وفي منـاظرة « غنية الطالب » بين الشرتوني والشدياق وفي منـاظرة الفطحل بينه وبين اليازجي الابن .

وكذلك حين اصدر بطرس البستاني قاموسه « محيط المحيط » ومجلة « الجنان » و « دائرة معارفه » اسهـم المصريون في تمويل هذه المشروعات اسهاما قويا اعترف به المعلم بطرس وابنه سليم ، وكان للاشتراكات المصريـة اثر كبير في تحقيق هذه المشروعات الضخمة التي كـان ينهض بها المعلم بطرس وابناؤه واصدقاؤه في الثلث الاخير من القرن الماضي .

والجوء محمد عبده واصدقائه ابراهيم اللقاني ومصطفى عبد الرحيم واحمد عبد الغفار وحسن جاد ومحمد الزمر الى لبنان ، بعد نفيهم من مصر سنة ١٨٨٢ ، دلالة كبيرة على الشعور الذي كانت تنطوي عليه نفوس المحررين مـن العرب آنذاك ، فقد كان العربي يؤثـر ان ينقل نشاطه الى بلد عربي وان يلقي بذور فكره في تربة عربية صريحـة ، لكي يضمن لها النمو والازدهار . وحسبنا لتبيـــان اثر الاستاذ الامام في الحلقات الفكرية في لبنان ، شهادة احد تلاميذه النجباء الامير شكيب ارسلان ، قال :

« وكانت فائدة مقام الشيخ في بيروت عظيمة لاهـــل سورية فانه ما مضت مدة الا وقد اصبح منزله بصـــورة دائمة تقريبا غاصا بالزائرين الذين كانـــوا يقصدون الى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضرته والالتقاط من دروه. وصار للناس ولوع به فكنت تراهم يحفظون من كلامـــه ويقلدونه في لفظه ويتابعونه في رأيه... واجمع السوريون على اجلاله والولوع به اجماعا لم يقع مثله لاحد ، فكنـت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء تزدحم حول ذلك المنهل العذب ، وكان هو بسعة عقله وعلو ادراكه واحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم كانه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم » .

— ١٤ —

هذه امثلة قليلة عن مظاهر التعاون الفكري الوثيق بين مصر ولبنان في القرن الماضي . وقد كانت كلها امثلة عميقة الدلالة على ما سميته بالوحدة الثقافية العربية التي تمتـد جذورها منذ اقدم العصور حتى اليوم . ولم تتوقف هذه الصلات في قرننا هذا — القرن العشرين — بل استمرت

الأدب الأميركي في نصف قرن

صدر منه:

١- النقد الأدبي

وليم فان اوكسنور - ترجمة: صلاح احمد ابراهيم - ٣٥٠ ق.ل

٢- القصة القصيرة

راي ب. وست - ترجمة: سميرة عزام - ٢٥٠ ق.ل

٣- الشعر

لويس بوجان - ترجمة: سامي الخضراء الجيوسي - ٣٠٠ ق.ل

٤- القصة الحديثة

فردريك ج. هوفمن - ترجمة: بكري عباس - ٤٥٠ ق.ل

٥- النثر غير القصصي في أميركا

هاجي برودريك - جراي ميتزجر - ترجمة: مروان الجابري (يظهر قريبا)

تطلب جميع هذه الكتب وسواها من الكتب العربية من
دار الثقافة - ميدان - رياض الصلح - ص.ب ٥٤٣
تلفون: ٢٣٠٥٦١ - ٠٥٨ ٢٤٥ -
ومن عموم المكتبات

على قوتها وان كانت قد تلونت بألوان جديدة نظرا لاختلاف طبيعة العصر . فقد كان القرن الماضي قرن اعداد وتمهيد ، قرن يقظة لا بد من حدوثها قبل ظهور عصر النهضة . اما في هذا القرن فقد استوت النهضة على قدميها بفضل هذه الجهود المتعاونة الضخمة ، وظهر التعاون الثقافي في حلة قشيبة ، وتجلى في حقلي الابداع والاصالة ، بينما كان يتجلى في القرن الماضي في حقلي النقل والتقليد .

— ١٥ —

منذ مطلع هذا القرن استوت للبنانيين في المهجر الامريكي نهضة ادبية مرموقة ، كان على رأسها الكاتب الكبير جبران خليل جبران ومن حوله كوكبة من الادباء والشعراء يهتدون بهديه وتعشو ابصارهم الى نفثات قلمه . ويخبرنا تاريخ الادب الحديث ان ادب جبران وقع في نفوس عدد من أدباء مصر احسن موقع فتأثروا به وتأثروه . فالمنفلوطي تأثر بالكتاب اللبنانيين المتمصرين وعرف عن طريق فرح انطون ومجلته « الجامعة » روسو وهيجو وفولتير وسواهم كما تأثر بجبران ، وبعاطفيته المسرفة ، وكان يرسل بآثاره الادبية الى المهجريين في امريكه لكي يروا رأيهم فيها . وقد كان المنفلوطي برا باصدقائه واساتذته هؤلاء ، اذ وقف يدافع عنهم حين اخذت الاقلام تنال منهم بسبب الموقف السياسي الشاذ الذي وقفته قلة منهم في مناصرة الاحتلال .

ويعترف محمود تيمور بانه بدأ يعالج الكتابة الادبية على صفحات السفور متأثرا باسلوب جبران . وكذلك ترى اثر اسلوب جبران والمهجريين عامة واضحا في كتابات حسين عفيف الذي ما يزال يكتب حتى الان ، وآخر كتاب صدر له هو « الارغن » .

— ١٦ —

وبعد الثورة القومية المصرية ١٩١٩ ، والانتداب الفرنسي على لبنان ، ظهرت المجلات الادبية الحديثة في كلا البلدين ، وكانت الحركات الادبية التجددية في كل منهما تلاقي صدى قويا في البلد الاخر ، فالسياسة الاسبوعية وكوكب الشرق والرسالة والثقافة والكاتب والكتاب في مصر ، كان يقابلها المعرض والجمهور والمكشوف والاديب والاداب في لبنان . واخذ الادباء اللبنانيون ينشرون آثارهم في مصر ، وكذلك فعل المصريون . وكان النقد الادبي هنا وهناك يتناول آثار ادباء البلدين ، بالنقد والتقييم وكأنها تصدر عن بيئة واحدة .

— ١٧ —

وكانت المهرجانات الادبية والمؤتمرات العلمية والمناسبات الوطنية ، فرصا تتجلى فيها صورة التعاون الوثيق بين البلدين — فما من حدث ادبي ، او وطني يقع هنا او هناك الا وتجد صداه في صحافة البلدين وفي انديتهما الادبية وفي شعر الشعراء ومقالات الناثرين . فوفاة الاستاذ الامام ومصطفى كامل وسعد وشوقي وحافظ بعثت في الشرق كله احزانا واقامت مآتم ، شارك اللبناني اخاه المصري فيها . ومهرجان شوقي ومهرجان الخليل كذلك كانا مناسبتين عربيتين قيل فيهما شعر كثير وحبرت مقالات عديدة .

— ١٨ —

وقد كانت لشعراء مصر ايضا في احداث لبنان مواقف مذكورة فحين ضرب الاسطول الايطالي بيروت سنة ١٩١١ قال شوقي احدى روائعه ونظم حافظ مسرحية شعرية مثلت في الاوبرا . وهل ننسى ذكريات شوقي الحميمة في لبنان ووصفه لمعاهد جمالها وغزله بحورها وظبائها . وهل ننسى ما قاله في بكفيا وما خاطب به جارة الوادي على ضفاف البردوني . كان ذلك شعرا عربيا رائعا ، عبر عن الم الشاعر العربي في مصر ، حين كان لبنان يتألم ، او صور فرحته الغامرة بلقاء لبنان واثر الشم الرواسي في حسه وصدى الجداول والشلالات في اعماق نفسه .

— ١٩ —

ثم تحدث هجرة اخرى للمواهب ، فبينما كان ازدهار المسرح في مصر ، في القرن الماضي ، يجتذب المواهب اللبنانية الطامحة ، غدت السينما اليوم تجتذب هذه المواهب . فتلاقي على ارض الكنانة الترحيب والنجاح ، ويقابلها المصري في وطنه مقابلة الاخ المشوق للقاء اخيه .

وتأتي بعد ذلك بعثات المدرسين التي تمد لبنان بنخبة من رجال التعليم من وطن الى وطن ، بل من مدينة في وطنهم الى مدينة اخرى ، ليغرسوا غراس النهضة العلمية ، وليرعوا ازدهارها وترعرعها ، بقلوب حانية مخلصة ، يعمرها الايمان بان العربي خادم في ارض وطنه ، اينما كان .

وجاءت الجامعة العربية اخيرا ، وادارتها الثقافية خاصة ، لا لتنشيء صلات ثقافية جديدة ، بل لتكرس واقعا قائما تقادم العهد عليه ، وبلغ من العمر قرنا ونصف القرن او اكثر من ذلك .

— ٢٠ —

هذه سيداتي وسادتي ، عجالة عما تم في نهضتنا الحديثة من تعاون ثقافي وثيق بين بلدين عربيين ، قاما بعبء النهضة والتجديد في تاريخنا الحديث . وانهما لعمري امثولة جديرة بان تحتذى وان تكون دوما ضميرا آخر الى جانب ضميرنا نلجأ اليه كلما هزت دوحتنا العربية ريح من الشرق او عبث بها عاصف من الغرب . فهذه الصفحات المشرقة حرية بان تطالع كل يوم لتكشف عن حقيقة النفس العربية ، حين تتاح لها الحرية والانطلاق في حقل الفكر ، فتتجاوز الحدود وتخترق الحجب فيشع نورها على اسمى صعيد ، صعيد العقل الانساني في تطلعه الحضاري .

اخشى ان اكون قد امللت حين لجأت الى السرد والتعداد في عدد من المواقف . وعذري ان هذا الموضوع المتشعب لا تلم به محاضرة ، وان مثل هذه الصلات العديدة المتنوعة جديرة بسفر جليل لا بدقائق معدودات .

* *

وبعد ، فليست ، سيداتي سادتي ، هذه الجامعة الفتية التي اتشرف بمخاطبتكم من على منبرها ، الا رمزا كبيرا جديدا يلخص لنا هذا التاريخ الثقافي الحافل بالامجاد في ثلاث كلمات . وهي وان كانت المظهر الاخير من مظاهر هذا التعاون ، فان تكون آخر هذه المظاهر باذن الله . *

الدكتور محمد يوسف نجم

---

* نص محاضرة القيت في جامعة بيروت العربية